البعد العرفاني والتربوي والعبادي للحج

محمد حسين فضل الله

أعتقد أنّ أي بُعد من هذه الأبعاد يحتاج إلى حديث مستقل، ولذلك: سأحاول إثارة بعض الأفكار في هذا الموضوع، من خلال عدة نقاط:

النظرة التجزيئية ... المشكلة:

النقطة الأولى: إن مشكلة الإسلام، في تجارب المفكّرين المسلمين، هي النظرة التجزيئية التي حاولت أن تنظر إلى كل جزءٍ في الإسلام بعيداً عن الأجزاء الأخرىٰ، فنقرأ عن البعد الروحي، وعن البعد الاجتماعي، وعن البعد السياسي، وعن البعد الاقتصادي، كما لو كان كل واحدٍ منها موضوعاً مستقلاً.. في طبيعته، مما أدى إلى بعض الانعكاسات السلبية على واقع التصوّر الإسلامي، والممارسة العملية للإنسان المسلم في التزامه ببعض الجوانب من دون بعض آخر.

وإننا نلاحظ في هذا المجال، أن هذه النظرة تبعدنا عن الفهم الشمولي

للإسلام ؛ لأنه يختزن في كل جانب من جوانبه ، الجوانب الأخرى .. فنحن مثلاً عندما ندرس الناحية الاقتصادية في الإسلام ، فإننا لا نجد فيها جوّاً مادياً يتحدّث عن العلاقات الاقتصادية ، وطريقة تحركها في علاقات الانتاج والتوزيع ، وما إلى ذلك فقط ، بل نجد ـ إلى جانب ذلك ـ عمقاً روحياً ومنهجاً أخلاقياً ، وحركةً اجتماعيةً وسياسةً في نطاق حركة الفرد والمجتمع ، يوحي لنا بأن هذه الأبعاد كلها تتكامل لتكوّن البعد الاقتصادي في المنهج ، وفي النظرية .. وفي ضوء ذلك فإننا لا نستطيع أن نفصل الجانب الذاتي عن الجانب الموضوعي في المسألة الاقتصادية .

وإذا أردنا أن ندرس البعد الأخلاقي في الإسلام ، فإنك لن تستطيع دراسته في نطاق النظرية الأخلاقية من الجانب الفلسفي ، بل لابد لك من استحضار المجالات الفردية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية كافة ، حتى نقف على الجانب العبادي ، لتجد الخطوط الأخلاقية تمتد إليها من جهة ، وتنطلق منها من جهةٍ أخرى .

وهكذا لن تجد الجانب الروحي مفصولاً عن الجانب المادي ، بل تجد هنا لوناً من التزاوج الواقعي والعملي ، والتفاعل النظري بينهما على مستوى التصور في تركيز النظرية الإسلامية في تفسير الكون والحياة والإنسان .

إننا ندعو إلى دراسة هذه المسألة بعمقٍ ؛ لنصل إلى النتيجة الحاسمة التي نخرج منها بالفكرة القائلة : إن الإسلام كيان فكري وتشريعي عملي تتغذى جوانبه تماماً كما هو الجسد الذي يتكامل ويتغذى من كل أجهزته ، فلا يستطيع أيّ جهازٍ ، أن يعطي الحياة الإنسانية شيئاً إلّا من خلال الطاقة التي تمدها بقية الأجهزة بالحيويّة ، فيما تحمل من عناصر القوّة والحياة .

وعلى هذا الأساس ، نستطيع أن ندخل إلى الواقع الإسلامي للإنسان

المسلم من خلال الحالة التكاملية ، لنوجّه السلوك العملي إلى مواجهة المسألة من هذا الموقع ، لنتخلص من كثيرٍ من الخطط التي أثارها الكفر في وعي الأمة ، وحركها الاستعمار في حياتها عندما فصل الإسلام عن الواقع ، من خلال الفصل بين أجزاء الواقع ومفرداته ، فجعل القضية المطروحة ، هي أن هناك ديناً ودنيا ، وأن للدين دائرته ، وللدنيا دائرتها ، فآفاق الدين هي آفاق الغيب والروح والمثال ، التي تنطلق معها العبادة في أجواء الصلاة والصوم والحج والدعاء والابتهال والتصوف وغيبوبة الذات عن الواقع . أمّا آفاق الدنيا فهي آفاق الحياة العامة والخاصة في أجوائها المادية ، في اجتماعياتها وذاتياتها ، وسياستها واقتصادها ، وحربها وسلمها ، وشهواتها وملذاتها . فللدين ربّه ، وللدنيا ربّها .. والله هو ربّ الدين ، وقيصر هو ربّ الدنيا ، فليس لله أن يتدخل في صلاحيات القيصر وشؤونه وليس للقيصر أن يدخل إلى ملكوت الله وساحته .. وهكذا دخل الإسلام هذه الدائرة .. وبقيت الدوائر الأخرى تنتظر الفكر الآخر ، والقوّة الأخرى التي لا مكان فيها للإسلام .

وقد نلاحظ أن عصور التخلف التقليدية استطاعت أن تهيّيء الأرضية الصالحة لمثل هذا الاتجاه في الذهنية الإسلامية ، وذلك فيما لاحظناه من الأبحاث العبادية التي عاشتها التجارب الإسلامية الفكرية والفقهية التي حاولت أن تعتبر العبادات كياناً مستقلاً مفصولاً عن الجوانب الأخرى .. فنشأت عندنا شخصية الإنسان المسلم العابد الذي يستغرق في عبادته فينسى كل ماحوله ، ومَن حوله ..

حتى « العرفان » الذي انطلق في الدائرة الروحية الإسلامية ، كفكر وممارسةٍ من أجل أن يكون أسلوباً متقدماً في صنع الشخصية الإسلامية المتحررة من كل القيود ، فتنتقل حركتها في سبيل الأهداف الكبيرة .. ليرتبط الإنسان بالحياة من خلال الحرية الداخلية المنفتحة على الله ، المتحركة في الحياة

من خلاله ؛ ليكون إنسان الحياة ، الحرّ في فكره وفي إرادته .. وفي حركة الحياة من حوله . حتى العرفان هذا ، دخلت فيه الفلسفة اليونانية والهندية وغيرهما ، فجعلت منه ـ في وعي الكثيرين في الساحة الإسلامية ـ فكراً منفصلاً عن الحياة بحيث يستغرق فيه الإنسان ـ في الأجواء الإلهية التي يعيش فيها ـ الاستغراق في هواجسه وتأملاته وابتهالاته مع الله ، من دون أن ينفتح من خلال ذلك على الحياة .

وقد رأينا ـ في تاريخنا وفي حاضرنا ـ الكثيرين ممن أخذوا بالعرفان كفلسفةٍ ، وكسلوكٍ ، وكاتجاهٍ ، قد ابتعدوا عن الحياة ، وعن قضاياها وهمومها ومشاكلها وحركتها في ساحة الصراع ، واستغرقوا في الفكرة الانعزالية التي تعتبر ذلك كله شأناً مادياً لا يتناسب مع الانطلاقة الروحية المجرّدة التي يعيشها العارف ؛ لأنها تشغله عن الله ..

وقد لاحظنا في بعض هؤلاء ، أنهم لا يدققون في قضايا الشرع فيما يمارسونه من أساليب الرياضة الروحية وفيما يفعلون ، وفيما يتركون ، ممّا قد يعيش الإنسان فيه الابتعاد عن التكليف الشرعي فيما يحلّ الله وفيما يحرّمه ، وربما وصل ذلك بالبعض الىٰ اعتبار الشرع حالة في الظاهر لا ترفع إلى مستوى العرفان ، الذي هو عمق الوعي الروحي في الباطن .

ولكننا نعرف أن «العرفان الإسلامي» قد انطلق من خلال مفاهيم القرآن ، التي تلحظ في الإنسان ارتباطه بالله ، الذي يطلّ به على مسؤوليته في الحياة عن الحياة كلّها ، وعن الإنسان كله ، في المنهج الفكري الذي أقامه الإسلام للحياة ، وفي الخط التشريعي الذي أراد للناس أن يسيروا عليه ، وفي الأجواء العامة التي وجّههم إلى أن يعيشوا في داخلها وفي ساحاتها .. وبذلك كان يمثل الإعداد الفكري والعملي للدخول إلى ساحة الإسلام في الحياة من خلال الله .

فليست هناك خلفيّة فلسفيّة يمكن للعرفان أن ينتمي اليها ، أو ينطلق منها بعيداً عن المفاهيم القرآنية الإسلامية ، التي أكدت أن يكـون الإنسـان المسـلم إنساناً يتحرك في الحياة ؛ ليكون خليفة الله في الأرض ، ليبني الكـون في دائـرة قدرته ، على النهج الذي يحب الله له أن يكون فيه ، بعيداً عن كل ما يثقله ؛ ليكون الإنسان الحرّ من الداخل ، من أجل أن يؤكد حريته في الخارج .

ـ محل الصورة ـ

الأبعاد العبادية في انفتاحها على الأبعاد السياسية :

النقطة الثانية : إننا نريد ـ من خلال شمولية النظرة الإسلامية إلى الحياة ـ أن نقترب من الأبعاد العبادية التي تنفتح على الأبعاد السياسية والاجـتماعية في الحج ، كما نفهم ذلك من خلال كل عباداتنا ؛ لنصل إلى تأكيد فكرتنا في تكامل

الإسلام في كل مفرداته .. فنجد أن العبادة تلتقي بالسياسة في مفهومها الواسع ، كما تطلّ على ساحة الحياة الاجتماعية .. وبذلك تدخل قلب الحياة ، بدلاً من أن تنفصل عنه .

فإذا دققنا في الصلاة ، في كلماتها وفي أفعالها ، وفي إيحاءاتها .. وإذا درسنا الصوم فيما يثيره من أجواء نفسية ، وفيما يؤكده من قوّةٍ حركية ، ولاحظنا ما في الحج من معطيات ومؤثراتٍ وأجواء ونتائج .. فإننا نجد أنها تلتقي في ارتفاعها بالإنسان إلى صفاء إنسانيته ، وفي توجيهه إلى ما يحقق توازن حركته الإنسانية في الحياة .. لأن سرّ المشكلة الإنسانية هو هذا الاستغراق فيما حوله من الحياة الدنيا ، بعيداً عن كل هدف كبير ينطلق من مواقع القيم الخيّرة في حركة الرسالات .. إنها مسألة القضايا الكبيرة التي تأكلها أو تستنزف طاقاتها القضايا الصغيرة ، التي تطوف بالإنسان في دائرة شهواته وملذاته وأطماعه الذاتية .

وكانت الفكرة الإسلامية تتحرك على أساس أن يجعل الإنسان دنياه آخرةً ، وأن تكون آخرته منطلقةً من حركة مسؤوليته في بناء الدنيا على النهج الذي يحبه الله .. فلا تمثل الآخرة ـ في هذه النظرة ـ منطقة مستقلة عن الدنيا ، بل الآخرة تمثل أهدف الدنيا الكبيرة التي تخضع لها حركتها الصاعدة إلى الله ..

فإذا أردت أن تفكر ، كمسلم ، يريد أن يمارس دوره في الدنيا .. فكِّر ما هو هدفك منها .. لا مانع من أن تنطلق معها ، وتتحرك في داخلها .. وتحتوي مواقعها ومصادرها ومواردها ، لكن .. فكّر لنفسك بالسؤال التالي .. ما هو هدفك منها ؟

إن الآية الكريمة تقول لك :

﴿ **وابتغ فيما أتاك اللهُ الدارَ الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسِن كما أحسن الله اليك ولا تبغِ الفساد في الأرض انّ الله لا يُحبّ المفسدين** ﴾[1] ..

اِجعل الدار الآخرة هدفاً لكل ما أعطاك الله من علم أو من مال أو من قوّةٍ .. ولكل ما أعطاك من الحياة .. وعش حياتك من خلال حاجاتك الجسديّة .. وأحسن إلى الآخرين ، فقد أعطاك الله النموذج الأكمل للإحسان فيما أحسن الله إليك .. لتعرف كيف تحسن إلى الآخرين .. ولا تبغ الفساد في الأرض في كل المفردات التي تملكها مما تستطيع أن تستخدمه في طريق الفساد ، كما تستطيع أن تستخدمه في طريق الصلاح والإصلاح .. لأن الله لا يحب المفسدين .

وهكذا نجد أن العبادة يمكن أن تكون نافذةً واسعةً تطلّ على كل ما في الدنيا من قضايا ومشاكل للحياة والإنسان ، من حيث هي نافذة تتحرك في آفاق الغيب ، مع الله ، وفي نتائج المسؤولية في الدار الآخرة .

في إيحاءات الحجّ المختلفة :

النقطة الثالثة : إننا نستطيع ـ من خلال ما أثرناه في النقطة الثانية ـ أن نقترب من هذه الأجواء ، لنفكر فيما حشده التشريع الإسلامي في تشريعه ، في الحج من عدة جوانب ، تتفرّع في شكلها وفي طبيعتها ، وفي ايحاءاتها ، فإذا وقفنا في أجواء الإحرام ، فإننا نشعر بأن هناك نوعاً من أنواع التدريب على أن يتحرر الإنسان من كل ما يعيق حركته من الارتباط بكل الأشياء التي يمارسها في عاداته ، أو في أجواء الترف التي يحبها ، أو في أجواء الحياة الاجتماعية التي يعيش في داخلها .

ثم بعد ذلك ـ نجد كلمات التلبية ـ فيما توحي به في معانٍ واسعةٍ ـ تعني التزاماً أمام الله سبحانه ، بطريقةٍ مؤكّدةٍ مضافةٍ بالاستجابة لكل نداءات الله .. ليس ـ فقط ـ ما يقوله بعض المفسرين والمحلّلين ، أنّ كلمة « لبيك » يراد بها الاستجابة لنداء إبراهيم عليه السلام فيما أمره الله به ، من أن يؤذن للناس بالحج

ليدعوهم إلى الإقبال عليه ، فيما تحدث به القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ وأذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلّ فجّ عميق ● ليشهدوا منافع لهم ... ﴾[٢] .

فنحن نرىٰ أن المسألة أكثر شمولاً في ذلك ؛ لتكون استجابةً لكل نداءات الله في كتابه وفي رسالته فيما وجهه للناس ، بعنوان ﴿ يا أيها الناس ﴾ وفيما وجهه للمؤمنين من خلال الإيمان بعنوان ﴿ يا أيها الذين آمنوا .. ﴾ .

إن كلمة « لبيك » تعني .. إننا يا رب نلتزم في موقفنا هذا ، بكل نداءاتك بالإسلام كله ، في عباداته ، وفي أخلاقه ، وفي جهاده ، وفي سياسته واقتصاده .. وفي مواجهة كل التحديات التي يواجهها الإنسان من الشيطان الداخلي في عمق نفسه ، أو من الشيطان الخارجي في عمق واقعه وفيما يحيط بحياته ..

إنها الحركة الصارخة ، في النداء الذي تنطلق به كل حناجر الحجاج ؛ لتؤكد موقفهم الذي يريد أن يلتزم بالإسلام من جديد ، في مسيرتهم إلى مركز الدعوة الإسلامية الأولى في مكّة .. ؛ لتكون مسيرة الحجاج من سائر أقطار العالم هي مسيرة الإسلام التي تقول : ـ من خلال تلك الكلمات الخاضعة الهادرة ـ يا رب .. إذا كان الناس قد تركوا الإسلام ، فلم يؤمنوا به ، ولم يرتبطوا به .. وإذا كان المسلمون قد انحرفوا عن خطه ، وتركوا الكثير من تعاليمه ، وانتموا إلى الاتجاهات الأخرى التي تختلف عن خطه المستقيم .. إذا كان الواقع هو ذلك .. فها نحن قادمون إلى بيتك المحرّم .. ؛ لنقول لك ، من كل قلوبنا ، ومن كل عقولنا ، ومن كل مواقعنا ومواقفنا وتطلعاتنا .. « لبيك اللهم لبيك » . فقد جعلت الإسلام لنا ـ بكل عمقه وامتداده ـ .. رسالة الحياة ، ونحن نريد أن ننطلق إلى الحياة ، من خلاله ..

ومن هنا قد نفهم كيف أن التشريع لم يقتصر على كلمة « لبيك » ولكنه

أضاف كلمة « وحدك لا شريك لك » ؛ ليؤكد الإنسان فيها أن التلبية التي تتوجه إلى الله سبحانه ، لا يمكن أن تتوجه لأيّ انسانٍ آخر ، فنحن في الحياة عندما نريد أن نستجيب لنداءٍ من أيّ منادٍ ، أو لكل مبدإٍ أو قانونٍ من أيّ مشرّعٍ أو مفكّرٍ ، أو لأيّة علاقة بالناس ، فلابد من أن يكون ذلك منطلقاً من استجابتنا لله ، وعلاقتنا به ؛ لتكون علاقاتنا بالحياة كلها منطلقةً من ذلك .. فلا شيء .. ولا حد .. مع الله .. فهو وحده الذي نتوجه إليه بكل ما في قلوبنا من محبة وإخلاص وعبودية .. فلا نتوجه لأي شخص معه .. بل إن علاقتنا بالناس منطلقة من علاقتنا بالله ، من خلال باب الله الذي يدخل منه الجميع .. حتى علاقتنا برسول الله ، وبكل رسل الله لا ترتبط بهم كأشخاص ، بل بصفة أنهم رسل الله ، والمبلغون عنه .. وهكذا هي علاقتنا بالأئمة والأولياء ، من خلال أنهم عباد الله الذين أطاعوه بما يجب ، وعبدوه كما يريد ..

« لبيك لا شريك لك .. » لن نجيب غيرك ، ولن نستمع إلى أيّ نداءٍ سواءٌ انطلق من حاكم ، أو من حكومة ، أو من حزب ، أو من محور إقليميّ أو دوليّ .. فأنت وحدك ، المحور الذي نتحرك في ساحته ؛ لأن ذلك هو الذي يجعلنا ننسجم مع عقيدتنا إذا أجبناك ..

« لبيك لا شريك لك » .. وتعود الكلمة من جديد ؛ لتتضاعف ، ولتعمِّق المشاعر في نفس الإنسان .. ، ثم لتطلّ على الحياة كلها ، لِتطلّ على كل ما في الحياة من ملوكٍ وجبابرةٍ وطغاةٍ ، وما تحتويه من نِعم وثروات ، فلا نجد المدّاحين الذين يمدحون هذا ، ويحمدون ذاك ؛ ليؤكد الإنسان في موقف الحج .. أن الملك لله وحده ، وأن الحمد له وحده ، وأن النعمة له وحده ، فكل حمدٍ مستمدٌّ من حمده ، وكل نعمةٍ مستمدّةٌ من نعمته ، وكل ملك فهو ظلّ لملكه ، فليس هناك محمودون ممدوحون ، وليس هناك منعِمون في ذاتهم ، فهو وحده صاحب الحمد والملك

والنعمة .. وبذلك يحسُّ الإنسان هناك ـ أمام الله وحده ـ أنه بعيدٌ عن كل أحدٍ غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ .. ومن خلال ذلك يتأكد معنى العبودية المطلقة لله .. بأن تكون عبداً بكلّك ، وبفكرك ، وشعورك ، وضميرك .. وحركتك .. وكل خطواتك العملية في الحياة .. وفي جميع مشاريعك على كل صعيدٍ .. أن تكون الإنسان الذي يعيش العبودية لله ..؛ لتنطلق حريتك أمام العالم .. وأمام الأشياء من خلال ذلك .. وبهذا تلتقي الحرية والعبودية في عمق الإنسان .. فتتعمق حريتك بمقدار ما تتعمق عبوديتك لله .. فأنت من موقع عبوديتك لله تأخذ حريتك .. أما الآخرون فإنهم يمارسون عبوديتهم للناس وللشهوات وللمطامع من موقع حريتهم المطلقة أمام الله ..

ثمّ ننطلق في بعض ايحاءات الحج ؛ لنصل إلى البيت الحرام ، لنتساءل .. ماذا يعني البيت ، وماذا يعني الطواف حوله .. هل هي الأحجار التي يتألف منها .. نقدّسها .. ؟

إنها ليست حتميّة جديدة تتخذ الأحجار الثابتة بدلاً من الأحجار المتحركة بل هي التمرد على الصنمية .. ولكنها .. الرمز .. الرمز الذي يُراد من خلاله تربية الإنسان على طريقةٍ جديدةٍ في مواجهة حركة الإسلام في صعيد الواقع .. فكيف نفهم ذلك ؟

إننا ـ كمسلمين ـ قد نصنع لله بيتاً في مدننا وقُرانا .. فهذا مسجد للقبيلة ، وهذا مسجدٌ للمحلة ، وهذا مسجد البلد .. وتتنوع الصفات المحدودة لتدخل فيها دوائرنا العائلية والقبلية ، فهذا مسجد آل فلان وذاك مسجد تلك القبيلة .. ودوائرنا القومية ، فهذا مسجد العرب ، وهذا مسجد العجم .. وهكذا نحاول في مساجدنا أن نحافظ على كل الحدود التي تفصلنا عن بعضنا البعض ، وتبعدنا عن ساحتنا الإنسانية الواسعة ؛ لنؤكد فيها عصبياتنا العائلية والإقليمية والقومية ..

أو لنبقى في الدائرة الضيّقة المحدودة التي تحجب عنا رؤية الدائرة الواسعة للحياة وللإنسان ، فكانت الكعبة ـ البيت الحرام ـ التي جعلها الله قياماً للناس .. كل الناس بعيداً عن كل صفاتهم اللونية والعرفية والجغرافية ؛ ليكون بيتاً لله في حجم العالم .. البيت الإلهيّ العالميّ ، ليشعر كل مسلم .. أنه بيته .. ورمزه ومنطلقه .. ولهذا أراد الله لهم أن يتوجهوا إليه أينما كانوا ... ﴿ .. **فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولّوا وجوهكم شطره** .. ﴾[٣] ولا يتوجهون إلى غيره ؛ ليكون قاعدة وحدتهم ، ومنطلق عالميتهم .. وموقع إنسانيتهم .

ثم قد نفهم جانباً آخر من الصورة .. في الطواف حول البيت كعبادة ، فنحن نعبد الله بحسب الحالة الطبيعية أفراداً .. في بيوتنا ومواقعنا الفردية .. ثم نمارس العبادة ـ بعد ذلك ـ جماعة في صلاة جماعة محدودةٍ ، قد تتسع في أفرادها ، وقد تضيق ، تبعاً للموقع وللإمام وللمناسبة .. وتبقى العبادة في حدودها الفردية والاجتماعية الضيّقة .. فلا نعيش فيها الانفتاح في عبادتنا لله على مستوى حجم الأمة كلها ، تبعاً للتنوع الواسع في النطاق العالمي .. الإنساني .

وهنا تأتي عبادة الطواف .. ؛ لتكون العبادة حول البيت الإلهي العالمي في حجم الأمة كلّها .. عندما يشترك المسلمون ـ من سائر أقطار العالم ـ ليعبدوا الله كأُمّةٍ ، يتمثل فيها العربي والفارسي والهندي والامريكي والافريقي والاوروبي ، وما إلى ذلك ؛ لينطلق الجميع في عبادةٍ إسلامية عامّةٍ كأُمّةٍ ؛ ليعيشوا الأفق الواسع في العبادة ، وليتفاعلوا بهذه الشخصية الجديدة التي تؤكد في داخلهم معنى الامتداد الإنساني الشعوري في روحية العبادة بين يدي الله ... ويتخلصوا بذلك عما اعتادوه في حياتهم ؛ لأن الناس إذا مارسوا فكرهم وعبادتهم ومسؤولياتهم في النطاق الضيّق ، فإن ذلك يتحول إلى حالةٍ نفسيةٍ ضيّقة مخنوقة في الدائرة المحدودة .. فينسون صفتهم كجزء من الأمة الواسعة .. بينما توحي العبادة في داخل

التنوع الإنساني للأمة المسلمة بالبعد العالمي للشخصية ، وهي بين يدي الله رب العالمين ..؛ ليتمثل من خلال ذلك الهدف التربوي للحج ، وهو صنع الإنسان المسلم العالمي ، الذي يتحرر من ذاتيته وعائليته وإقليميته وقوميته عندما يطوف بالبيت العالمي لله ..

وتلك هي القضية التي قد نحتاج إلى أن نتمثلها ونعيشها في واقعنا الاجتماعي والسياسي .. ؛ لندخل في نشاطاتنا في دور جيد ، وساحةٍ جديدةٍ ؛ لأن من مشاكلنا الإسلامية أن المسلمين قد يغلب عليهم الاهتمام بقضاياهم الخاصة ، التي قد تتطور من الحالة الذاتية إلى حالة البلد الذي ينتمي اليه الإنسان المسلم ، فيرى أن قضايا بلده الإسلامي هي المحور الذي يجب أن يدور حوله كل النشاط الإسلامي ، سواءً كان نشاطه ، أو نشاط الناس من حوله .. مما يجعله يصرف كل طاقاته في هذا الموقع ، ويعمل على أن يستخدم كل قضايا العالم من أجله .. من دون أن يفكر بأن عليه أن يستفيد من بلده لخدمة قضايا العالم الإسلامي الأخرى .. الأمر الذي قد يتحول إلى شعور داخليّ بالانفصال عن قضايا العالم ..

وهكذا لاحظنا أن الواقع السياسي الذي يعيشه المسلمون في بلدانهم ؛ هو أن قضيةً إقليمية إسلامية في هذا البلد ، وأن هناك قضيةً قوميةً في هذا المحيط الجغرافي .. وأن المسلمين يتحركون في حجم هذه القضايا تبعاً لمواقعهم المحلية ، ولا يحاولون الاهتمام بقضايا الآخرين إلا من خلال علاقتها بهذه القضية ، كما لو كانت قضيةً أجنبيةً يلامسونها كما يلامسون أيّة قضية بعيدة عن ساحتهم .. وقد يسجلون على الآخرين نقطة سوداء إذا انشغلوا عن هذه القضية بقضيتهم .. حتى لو كانت قضيةً إسلامية .

وقد يقول البعض ، إنني أهتم بهذه القضية الخاصة ؛ لأنها قضية إسلامية ، ولأنَّ طبيعة الموقع الذي أمثله في هذه الساحة يفرض عليّ الحركة في هذه الدائرة ؛

لأني أعرف منها ما لا يعرفه الآخرون ، ولأني أملك من مواقعها ما لا يملكه الآخرون ، في نوعية الحركة ، وفي طبيعة النتائج ؛ ولأن قيمتها قد تفوق قيمة كثيرٍ من القضايا الإسلامية الأخرى ، بالنظر إلى أهميتها السياسية ، وقيمتها الإستراتجيّة فيما هو الواقع الإسلامي في حركة الصراع .

وقد يكون هذا الكلام معقولاً ومقبولاً ، ولكنّ هناك نقطةً مهمّة ، وهي .. إن العقلية الإسلامية الشاملة تفرض على الإنسان المسلم الذي يتحرك في قضية بلده أو منطقته ـ كقضيةٍ إسلامية ـ أن يدرس موقعها من المسألة الإسلامية في العالم من حيث طبيعتها السياسية أوالاقتصادية أو الأمنية ؛ لتعرف كيف يكون حجم حركتك وكيف يكون موقفك من هذا الوضع أو ذاك في هذا البلد ، أو في ذلك البلد ، فهناك فرق بين أن تفكر بأن تنتصر قضية بلدك حتى لو انهزمت كل قضايا الإسلام في العالم ، وبين أن تفكر ببلدك كجزءٍ من قضايا الإسلام الكبرى ..

إننا نقول ، لا تتحمسوا لقضاياكم الخاصّة .. ، لتقولوا بأن المسلمين في هذا البلد يهتمون بقضاياهم ، لأنهم لا يجدون أحداً من المسلمين الآخرين قادراً على حمايتها .. كما أن المسلمين في البلد الآخر يقولون نفس القول .. لكنّ هناك نقطةً مهمّةً لا بدّ من ملاحظتها بدقة وهي ؛ إننا نهتمّ بقضايانا على أساس أنها جزءٌ من كلٍّ ، لا على أساس أنها قضيّةٌ منفصلةٌ عن الجسم الإسلامي .

إننا ندعو ـ من خلال الحجّ ـ إلى أن نصوغ شخصية الإنسان المسلم العالمي من جديد ، الذي يفكر في الإسلام بحجم العالم من خلال قدراته وإمكاناته ، وليطوِّر نفسه بحيث يستطيع أن يكون مفيداً للمسلمين في كل منطقة من مناطق الأرض .. فلا تتجمد طموحاتنا في الزوايا الضيّقة والمواقع المحدودة ، ولا تتساقط مواقفنا عند الحواجز الذاتية الخاصة ..

إننا إذا استطعنا الوصول إلى هذا الهدف الكبير في صنع الشخصية

الإسلامية العالمية ؛ فإننا نستطيع أن نعتبر أنفسنا في الموقع الصحيح للبداية الحاسمة ؛ التي نتحول فيها إلى أمّةٍ بدلاً من أن نبقى أفراداً متناثرين ، أو جماعات متفرّقة . وهذا هو ما نستوحيه من معنى الطواف حول البيت .

ثم ننتقل إلى السعي بين الصفا والمروة ، الذي يمثل حركة الإنسان من بداية معينة إلى نهاية معينة ، في أشواط .. من أجل أن نتعبد لله في ذلك لأنه أمرنا به .. فكان السعي حركةً في معنى الطاعة ، وسرّ العبادة .. ؛ لتكون انطلاقةً ايجابية تربويةً في بداياتٍ ونهاياتٍ أخرى في حركة الإنسان في طلب العلم ، أو في تحصيل القوّة ، أو في مواجهةِ التحديات التي يفرضها المستكبرون ، أو في إطلاق المواقف المتحدية ضدهم ، أو في قضاء حوائج الناس .. ؛ لأن الله طلب منك السعي من أجل هذه الأمور ، كما طلب منك السعي في هذا المكان ..

إن الله يريد منك أن تجعل الحياة حركةً من أجل الله في خط المسؤولية ؛ لتحوّلها إلى ساحةٍ تبتعد عن كل الفئات الطاغية والكافرة والمستكبرة ؛ ليكون سعيك بدايةً ونقطة انطلاق إلى كل الساحات في العالم فيما أرادنا الله أن نتحرك فيه من ساحات .

ثم نعيش ـ في الحج ـ الوقفات ، في عرفة ، وفي المزدلفة ، وفي منى التي نعيش لياليها في لحظات تأمّلٍ وتفكير .. إننا نشعر بأن إيحاءاتها ، وبأن الإنسان عندما يندمج في أجواء الحركة في الحياة ، في أيّ موقعٍ من مواقعها ، وفي أيّ اتجاه من اتجاهاتها في العلم والسياسة ، والحرب والسلم ، لا بدّ له من أن يقف ليفكر ، وليتأمل ، وليحسب حساب الأرباح والخسائر ؛ ليكتشف فيما يمكن أن يكون قد وقع فيه من انحرافٍ في خط السير ، لئلا تؤدي بك الغفلة في اندفاع الحركة إلى الشعور بالغرور ، الذي يوحي لك بضخامة معينةٍ في شخصيتك لا وجود لها في الواقع ، فيخيّل إليك بأنك لا يمكن أن تخطئ ! لأن الحق معك ، فيما تملكه من

وضوح الرؤية للأشياء، ومستوى المعرفة في عقلك وتجربتك.

إن هذه الوقفات توحي لك ـ من موقع الرمز ـ بأن عليك أن تخفف من سرعة اندفاعاتك؛ لتقف وتفكر بما قلته أو فعلته، لتكتشف احتمالات الخطأ والصواب فيه؛ لتنقد نفسك نقداً موضوعياً في كل ذلك.. لتفهم نفسك جيّداً.

إن الموقف في عرفات والمزدلفة ومنى ـ أمام الله ـ هو موقفٌ نقديّ تأمليٌّ لتذكر نفسك، وتذكر ربك، وتفكر في موقعك منه وفي موقفه منك.. وفيما يجب أن تتحرك فيه نحو المستقبل من أعمالٍ ومشاريع ونتائج.. ولا سيّما في منى، التي توحي إليك لياليها بأنك في الموقع الأخير من الحج.. فكيف كنت.. وكيف أنت الآن، وماذا تريد أن تفعل غداً.. وما هي طموحاتك الجديدة؟.. هل هي قصة الدنيا في الإخلاد إلى الأرض، أو هي قصة الآخرة والدنيا في عملية الاندماج بينهما، فيما هي الفكرة، وفيما هي الروح، وفيما هو الهدف الكبير في ابتغاء رضوان الله.. كما يريد الله لنا أن نعيش المسألة هناك في الابتهال إليه.

﴿... فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ● ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ● أولئك لهم نصيب مما كسبوا ...﴾[٤].

وبذلك فإن الحجّ لا يفصلك عن الدنيا، بل يريد أن يربطك بالآخرة إلى جانب الدنيا في عملية تكاملٍ وامتدادٍ.

وأخيراً.. إن الحجّ يُطلّ بنا على فكرة الصراع ضد الشيطان، من خلال الإيحاء الحسي في عملية رجم الشيطان، بطريقة رمزية لا تبتعد عن الواقع، فيما تتحرك به الحياة.. إنك لم تستحضر شيطاناً خفيّاً يعيش في زوايا نفسك من دون أن تعرف طبيعته، بل إنك تستحضر في داخل وعيك الذاتي كل الشياطين، من خلال طبيعة فكر الشيطان، لا من خلال حجمه..

إنك تتطلع لتجد الشيطان في نفسك وفي واقعك ؛ لتبصر وتحدّق جيداً أين هو الشيطان في داخل ذاتك ، وأين هو في حياتك الاجتماعية .. وفي حياتك السياسية .. وما هو حجمه فيما يتمثل به من أحجام القوّة في مواقع السلطة .. بين حجمٍ كبيرٍ وصغير ، وأكبر .. أو متوسّطٍ ؟

وهذا هو معنى نهاية الحجّ .. في عملية رجم الشيطان .. أيها الإنسان المسلم الحاج .. لقد انتهيت من عملية التدريب فيما هي التجربة على مستوى الحركة الذاتية في العبادة ، في المواقع التي لا تمثل التحدي الصارخ في ساحة الصراع .. وها أنت تقف لترجم الشيطان .. ؛ لترى أمامك كل شياطين الكفر والظلم والاستكبار في مواقع القوّة في العالم .. وها أنت قد انتهيت من الحج إلى ساحة العمل ؛ لتنطلق في الحياة كلها بكل أصنامها ومواقفها ومشاكلها وشياطينها ووسائلها وغاياتها ..

إنها عملية النجاح ، في الحج .. بعد ذلك ، لا في نهاية الحج ، بل في نهاية الحياة عندما يقوم الناس لرب العالمين .

هل انتهى الحجّ .. بانتهاء أعماله ؟

إنه لم ينته بل بدأ الآن ، ليكون الحجّ إلى الحياة الإسلامية التي تنتظر أكثر من حج ، إلى الساحات الملتهبة في الواقع الإسلامي في كل أنحاء العالم .. ؛ ليكون الدين كله لله .. وتكون الحياة في خدمة الله ..

وتلك هي قصة الإنسان عندما يعبد ربه من موقع إحساسه بالإيمان المسؤول ، والهدف المسؤول .. لا من موقع إحساسه بالفراغ . وذلك هو البعد الحقيقي للحج .. إنه صناعة الإنسان المسلم الذي يحب الله ويحب الإنسان والحياة من خلال هذا الحبّ الواعي الخاشع المسؤول .

الهوامش :

(١) القصص : ٧٧.
(٢) الحج : ٢٦ – ٢٧
(٣) البقرة : ١٤٤.
(٤) البقرة : ٢٠٠ ـ ٢٠٢.